

## الشخصية في عالم الحيوان

ناتالي أنجيير

صحيفة نيويورك تايمز

5 أبريل 2010

## Even Among Animals: Leaders, Followers and Schmoozers

By Natalie Angier

The New York Times Newspaper

ترجمة: علي الحارس

- صحفية متخصصة في الشؤون العلمية، صحيفة نيويورك تايمز.
- نشرت كتاباتها في عدد من الدوريات المرموقة (ديسكوفر، تايم، ريدرز دايجست).
- أستاذة مادة (إعداد التقارير حول الشؤون العلمية والصحية والبيئية)، جامعة نيويورك (سابقا).
- حائزة على عدد من الجوائز الصحفية المهمة: (بوليتزر، AAAS).
- إجازتان في الفيزياء واللغة الإنكليزية، جامعة ميتشيفان.



ناتالي أنجيير

حاولت مؤخرا أن أجتاز بعض اختبارات الانترنت لتحديد الشخصية، ويجب أن أسجل هنا شعوري بالإحباط من هذه الاختبارات: حيث وجهت إليّ أسئلة مملة لا طعم لها ولا لون من قبيل: هل تميل إلى البحث عن أخطاء الآخرين؟!، هل ترى بأنك ودود ومقبول؟!، هل تقوم بعملك على أكمل وجه؟!

ولم يكن في الاختبارات أية تحديات حقيقية من قبيل: لنفرض بأنك جائع جدا، وأمامك طبقك المفضل المليء بالحبوب والحشرات، لكنك تجد في وسطه ضفدعا ورديا من البلاستيك: فكم ينقضي من الوقت قبل أن تبدأ بالأكل رغم المنفرات؟! أو: لنفرض أنك دخلت إلى غرفة مألوفة لديك بكل ما فيها ما عدا أن شخصا وضع في وسطها قطعة من السجاد البني القديم، فهل تبتعد عن قطعة السجاد، أم أنك تسارع إلى النقر فيها؟!

## الشخصية في عالم الحيوان

هذه الأسئلة الهامة جدا مأخوذة من حقل مزدهر من أبحاث شخصية الحيوان. وهي جهود تهدف إلى فهم سبب نزوع بعض أفراد النوع الحيواني نفسه إلى التصرف على نحو متطابق. ونزوع البعض الآخر إلى التصرف باختلاف واسع المدى. لقد وجد العلماء الذين يدرسون أصنافا متنوعة كثيرة من المملكة الحيوانية دليلا على وجود شخصيات متميزة لدى الحيوان تتمثل في مجموعات من السلوكيات، والأطوار، والتفضيلات، والمكروهات التي تظل ثابتة بتغير الزمن والأوضاع. لقد وجدوا تنوعا أسلوبيا لدى الشمبانزي والقرود وإوز البرنقيل ومينك الحقل وطير القرقف الأزرق والكبير وكبش الجبل والحبار المدبب وسمكة الشمس البرتقالية والفنجز المخطط والضباع المرقطة وحتى العناكب والماشيات على الماء. وذلك على سبيل المثال لا الحصر. وقد ميز العلماء بين الحيوانات وجود المتمهل، والاجتماعي والمنعزل، والمطرب، والأبله، والمستكشف الشجاع؛ كما اكتشفوا أن الحيوانات تتمسك بالشخصية ذاتها معظم حياتها كما هو حال الإنسان.

ويعمل الباحثون حاليا على التنقيب عن مصدر وأهمية كافة هذه الأرواح الحيوانية. وهم يطرحون أسئلة من أمثال: عندما تبدأ الإوزة بمطاردتها العشوائية، فما هو نمط الإوزة التي ستقود السرب المطارد، ولماذا تقرر بقية السرب أن تتبعها؟ وهم يستخدمون نماذج حاسوبية لشرح كيف يمكن لأنماط مختلفة من الشخصيات أن تستمر في الوجود ضمن مجموعة حيوانية مدروسة، وهم يستكشفون في أثناء ذلك فوائد وأضرار الأنماط المختلفة من الشخصية الحيوانية.

على سبيل المثال، هنالك دراسة قام بها تشادويك جونسون (J. Chadwick Johnson) من جامعة ولاية أريزونا حول العناكب الصيادة (Fishing Spiders)، واكتشف فيها أن بعض الإناث الفتية من هذه العناكب تتميز بشراهة شديدة لدى الافتراس مما يجعلها في النهاية شديدة السمنة والخصوبة، لكن هذا الجشع له أضراره أيضا، إذ تتصف هذه الإناث ذوات الأفواه الكبيرة بعادة كرهية تجعلها تلتهم الذكور قبل التزاوج، ومن دون نطاف لتلقيح البيوض لن يكون هنالك من فائدة لخصوبتها الكبيرة التي تعبت في اكتسابها.

## الشخصية في عالم الحيوان

وهناك علماء آخرون يقومون حاليا باستكشاف الصفات الشخصية التي تتجاوز كل ما قيل في القصص والحكايات: حيث تشير الأبحاث الأخيرة إلى أن الأشخاص الذين يتصفون بحس عال ومعرفة بالفنون يشتركون بمقومات كثيرة مع الخنازير ذات الصراخ الحاد والفئران المضطربة. وأنا حين نصف شخصا ما بأنه شديد الحساسية أو مرهف الحس فإن ذلك يقتضي وجود حقيقة جسدية خلف ذلك.

ويشتكي بعض المنتقدين من أن مصطلح «شخصية الحيوان» شديد السطحية نوعا ما. بينما يعرب غيرهم عن قلقه من أن المشروع بأكمله يخفي خلفه حقا مخيفا من حقول البيولوجيا (الأنثروبومورفيسم Anthropomorphism: نسبة الصفات البشرية إلى كائنات غير بشرية). ولكن الباحثين في هذا المجال يدافعون عن مناهجه وأساليبه. ومنهم ماكس وولف (Max Wolf) من معهد ماكس بلانك (Max Planck Institute) في ألمانيا. حيث يقول: «بعض أنماط السلوك التي نتحدث عنها مشابهة لما ندعوه (الشخصية) في أدبيات علم النفس البشري. فلماذا لا ندعوها كذلك لدى الحيوانات الأخرى؟» كما تقول أليسون بيل (Alison M. Bell) من جامعة ايلينوي في أوربانا. وهي تدرس شخصية سمكة أبوشوكة (Stickleback Fish): «إننا لا نحاول بأن نكون ودودين أو نروي القصص. إنما نراقب اختلافات ثابتة في السلوك من الممكن لنا أن نختبرها ونقيسها».

وفي تقرير نشرته مجلة سلوك الحيوان (Animal Behaviour) مؤخرا. عبر باحثون من جامعة غلاسغو الاسكتلندية عن القلق الواسع من أن تكون الاكتشافات في مجال شخصية الحيوان. ومعظمها ناتج عن أبحاث أجريت على حيوانات في أقفاص. منحصرة في المختبر ولا تكاد تكون لها علاقة بكيفية سلوك هذه الحيوانات في الطبيعة. لكن مجموعة من الباحثين أثبتت عكس ذلك. حيث أجرت كاثرين هيربورن (Katherine A. Herbhorn). وهي طالبة دكتوراه. مع زملائها بحثا على 125 من البلابل الزرقاء (Blue Tits) تم اصطيادها من البرية خلال شتاءين. حيث صورت هيربورن شخصية كل بلبل في المختبر مع التركيز على صفتين أساسيتين: الخوف من الجديد. والاستعداد لاستكشاف المحيط.

## الشخصية في عالم الحيوان

فوضعت ضفادع بلاستيكية وردية اللون في أوعية الطعام وسجلت الوقت الذي يمضيه كل طائر قبل البدء بالأكل. علما بأن جميع طيور المجموعة أبدت ملاحظتها للمتطفل الوردي. وتقول هيربورن عن ذلك: «كان بإمكانك أن تلاحظ إصابتها بالهياج حيث كانت تتقافز في أنحاء القفص». لكن بعض الطيور تغلب على خوفه وبدأ بالأكل خلال ثوان. بينما ظل بعضها بعيدا عن الطعام طيلة عدة دقائق.

ثم وضع الباحثون هذه الطيور في أقفاص منها ما هو مألوف لها ومنها ما هو جديد. ثم قاسوا المدة الزمنية التي يقضيها كل طائر قبل أن يبدأ بالقفز على الأعواد الجديدة والتغلغل في الحجرات الجديدة التي لم يألفها من قبل.

بعد ذلك وضع الباحثون علامات لهذه الطيور وأطلقوها إلى الطبيعة مرة أخرى. واستمروا بمراقبة الصفتين (الخوف من الجديد، والاستعداد لاستكشاف المحيط) من خلال تغيير ألوان أوعية الأتعمة في محطات الإطعام وإضافة أوعية جديدة في أماكن أخرى. وعن هذه المرحلة تقول هيربورن: «كان هذا الجزء من الدراسة أصعب بكثير، وتضمن التجول مع الكثير من البطاريات» التي تحتاجها أجهزة المراقبة.

جاءت النتائج واضحة على الرغم من تحديات التجربة. وتبين أن الطيور التي تفادت الضفادع الوردية في القفص تعاملت بالقلق ذاته مع تغيير ألوان أوعية الطعام في الحقل. وأن الطيور التي اتصفت بحب الاستكشاف في الأقفاص كانت بالمهارة ذاتها في إيجاد فرص التغذية الجديدة في الحقل: أي: تصرفت الطيور في المختبر كما لو كانت في الطبيعة.

وفي تقرير آخر جاء على صفحات مجلة سلوك الحيوان الصيف الماضي. تم التطرق إلى تجربة أجراها رالف كيرفرز (Ralf H. J. M. Kurvers) وزملاؤه من جامعة فاغينينغان (Wageningen University) الهولندية سعيا إلى تفسير ظاهرة تحدث لدى إوز البرنقيل (Barnacle Geese)، وهي أن إوزة بعينها عندما تتحرك تجد باقي الإوزات تتبعها دون تردد. ولم يجد الباحثون أي ارتباط واضح بين الصفة القيادية لدى هذه الإوزة وبين الصفات القياسية

## الشخصية في عالم الحيوان

كالحجم الكبير أو الذكورية أو الهيمنة الاجتماعية. لكن أكثر المؤشرات موثوقية كانت تدل على الجرأة: الاستعداد للاقترب من شيء جديد كقطعة سجاد مثلا. إن الإوز ليس حيوانا غبيا. فقد ثبت أن الحيوان الأكثر جرأة هو الأكثر براعة في إيجاد مواقع الطعام الجديدة. ومن أراد الحصول على نصيحة بشأن مكان الغذاء فعليه أن يتوجه إلى الإوزة الأكثر براعة في إيجاده.

يشتهر العلماء في أن تكون الميول الصغيرة الموروثة تتعرض للتعزيز أو التثبيط بفعل تجارب الحياة. وتشير النماذج الحاسوبية إلى أن أي اختلاف ضئيل في البداية قد يتضخم بمرور الوقت. وذلك من خلال ما تنتجه التعزيزات الإيجابية من دورات تغذية راجعة. كذلك تظهر حاليا أدلة على أن صفات بدنية أساسية تؤثر على الشخصية تأثيرا كبيرا. ومن أوضح هذه الصفات المعدل النسبي لتحليل معلومات الحواس في الجهاز العصبي. وحول هذا الأمر يقول ديفيد سلوان ويلسون (David Sloan Wilson) من جامعة ستيت في نيويورك (State University of New York) في مدينة بينغامتون: «هنالك معالجة معلومات بطيئة لا تشارك كثيرا في البيئة ولا تتقدم في الحياة. ثم هنالك المعالجات الحساسة التي تقوم دائما باستيعاب جميع الأشياء. وهو أمر قد يكون جيدا لأن المعلومات مفيدة. لكنه قد يكون أيضا خارج السيطرة». ويقول الدكتور ويلسون أن الدراسات المجراة على الأشخاص مرهفي الحس أظهرت أن رهافة حسهم لا تقف في مجال واحد فحسب؛ فهؤلاء يتأثرون بشدة عند سماع السمفونيات. ولا يتحملون مشاهد العنف. ويتحسسون من مواد دوائية كالكافئين. ويتهيح جلدهم بسهولة إذا وضع عليه ما لا يناسبه من صابون أو مرهم أو قماش.

إن الخنازير شديدة الحساسية تصرخ كثيرا. والبشر شديدو الحساسية (يشعرون كثيرا. لذلك تجدهم يستمعون إلى الموسيقى. وتجدها تملأ المكان صراخا.